Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رثاء المدن والممالك

فى عصر الطوائف

○ طابع عصر :

« كان أحسن الأزمان وأسوأها ، عصر الحكمة وعصر الجهالة ، عهد اليقين والإيمان وعهد الحيرة والشكوك ، أوان النور وأوان الظلام ، ربيع الرجاء وزمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا أى شيء قط ، وسبيلنا جميعًا إلى سماء عليين وسبيلنا جميعًا إلى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات وآفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية كما وصفه الكاتب الإنجليزى « شارلز دكنز » فى بداية قصته « المدينتين » ، وليس أصدق منه تصويرًا لعصر الطوائف فى تاريخ الأندلس البعيد . لأنك « قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية ، وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد ، وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى « تواريخ الانتقال والاضطراب » . إنه عصر « لا يوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصرًا واحدًا متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان »[1] .

كان عصر الطوائف أوان الحصاد لكل ما بذرت أيام الخلافة المجيدة ، وعصر الحجابة الزاهرة ، من جراثيم الخير وعناصر الفلاح على السواء . وأثمر فيها الخطأ كما أثمر التوفيق ،

---

(١) اقتبست هذه الفقرة الجامعة من كتاب : ابن الرومى ، حياته من شعره ، لعباس محمود العقاد ، ص ١٠ – ٢١ ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ – ١٩٣٨ ، ولو أنه بصدد الحديث عن القرن الثالث الهجرى فى دولة الإسلام الشرقية ، لأنها خير ما يعبر عن واقع الأندلس فى القرن الخامس الهجرى .